الفصل التاسع :

العمرية مبعثها العدل

العُمرية مبعثها العدل

لم يشغل عمرَ شيء قدر ما شغله العدل .

ولم يؤرق عمرَ شيء قدر ما أرقه كيفية انتشار العدل وتغلغله فى حياة الناس اليومية ، ليس فى الجزيرة العربية فحسب بل فى جميع البلدان التى تظللها الراية الإسلامية . بل أراد أن يكون العدل كالهواء يتنفسه الإنسان ويكون كالشمس يصل دفئه ونوره إلى كل مكان فى الكون ، ينعم به الإنسان – أى إنسان – مهما كان دينه ولونه وموطنه .

حُلم نبيل ، وغاية شريفة لرجل عظيم ، لم يكتف أن يؤسس ديوان القضاء ويعين القضاة ، ويوصيهم ويؤكد على ذلك ويتابعهم متابعة دقيقة ، بل أراد أن يعاين بنفسه وإن كلفه ذلك مشقة لا مثيل لها ، يقول : "لئن عشتُ إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولاً فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع عنى ، أما هم فلا يصلون إلىَ وأما عمالهم فلا يرفعونها إلىَ فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا"

أن يتصف الإنسان بصفة كريمة هذا شيء عظيم .

وأن تذاع تلك الصفة ويعرفها كل قاصٍ ودان ، وتكون تلك الصفة علمًا على صاحبها فهذا أعظم .

فعمر حاكم عادل فى وقت كانت وسائل الاتصال بين البلدان من الصعوبة والعسر وأن ينتقل الخبر من مكان إلى آخر قد يستغرق الأمر شهورًا لذلك فالبلاد تعيش فى شبه

عزلة ، وأيضًا كان هناك فاصل وفارق بين الحاكم والرعية ، فقد لا تعلم الرعية شيئا ذا قيمة عن الحاكم إلا ما تسمعه من قصائد قيلت فى تمجيده ويعلم الله إذا كانت تلك الصفات التى أشاد بها الشاعر حقيقة أم منحولة . وأن يشتهر حاكم بصفة ما وتعم معرفة تلك الصفة جميع الأرجاء ، ولا تكون فى خفاء على أحدٍ ، وأن تواتى الناس الجرأة أن يقصدوا الخليفة لا لشىء إلا ليشكوا له لطمة أو ضربة واثقين أن شكواهم ستُسمع، وأنه سيقتص لهم ، غير خائفين من سلطة ونفوذ المشكو فى حقهم ، فهذا شىء يدعو للإعجاب حقًّا "قبل أن نسأل : كيف عدل عمر ؟ ينبغى أن نسأل : كيف علم الناس من الحجاز إلى مصر ، ومن العراق إلى الحجاز ، ومن المسلمين والذميين ، ومن العلية والسوقة ، أن العدل كائن ، وأن طريقه مأمون على طالبه ، وأنه أقرب منالا من الصبر على الظلم وإن هان ؟

ولو لم يكن عهد عمر مسبوقا بعهد جرى فيه الإنصاف مجرى الوقائع الملموسة وشاعت أنباؤه وماثره فى كل فج وحدب لما طلبه الناس من أقصى مكان ولا خفوا إلى طلبه فى أكبر الأمور وفى أصغرها على السواء .

أمن المألوف فى عصرنا هذا أو فى عصر مضى أن يساق فاتح القطر بسيفه مئات الفراسخ والأميال لأن ابنه رفع سوطه على فتى من الفتيان فى حلبة سباق؟

أمن المألوف أن يخف الشاكى هذه المئات من الفراسخ والأميال وهو على يقين من عاقبة هذه الرحلة وعلى أمان من نقمة الفاتح الظافر الذى يشكو؛ ؟

أمن المألوف أن يتساوى الملوك والسوقة من أجل لطمة ؟ وأن يتساوى الأمير والجندى ضربة لضربة وإذلالا بإذلال على مشهد من أتباعه ورعاياه ؟

موضع الدهشة هو هذا قبل أن يدهشنا العدل من الفاروق .

موضع الدهشة ، قبل العدل ، ثقة بالعدل لا يخامرها الشك والتردد ولا يقر صاحبها على الظلم ولو جشمه طلب الإنصاف مسيرة أيام ومجازفة بخطر الانتقام !

ثقة وطمأنينة لا تتعلق الآمال بمطلب أعلى منهما ولا أغلى فى حياة بنى آدم وحواء

ممن أين جاءت هذه الثقة وهذه الطمأنينة ؟

من عند الله ! (١)

نعم ... إن عدل عمر المطلق بالمنظور الإنسانى ، لا تفسير له إلا أن نفس عمر موصولة صلة قوية ودائمة بالله ، اتصال يمده بمدد لا ينقطع يجعله ينفذ إلى جوهر الوقائع أمامه ولا شىء يمنعه من أن يحكم بالعدل غير ما ناظر إلى ما يترتب على ذلك ، فالعمرية التى تتملكه وتملى عليه تصرفاته وأفعاله ، تدفعه وتحضه على طاعة فيما أمر بالعدل يقول عمر فى إحدى خطبه : "... وإنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا يأخذوا أموالكم ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم فمن فعل ذلك سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذى نفسى بيده لأقصنه منه"

كلام فى غاية الشدة ، لا يقدر عليه سوى عمر ، وقد لا يرضى البعض انظر إلى رد الفعل أو القول عند عمرو بن العاص : "فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته أنك لتقصنه منه ، فقال أى والذى نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه أنا ، وكيف لا أقص منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه ألا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتذلوهم" .

هذا الحاكم القوى الجبار المهاب الجانب ، فى أى جانب هو ؟

---

١ - الديمقراطية فى الإسلام – عباس محمود العقاد : (١٤٣ – ١٤٤) .

أهو فى جانب الأقوياء والولاة ، ويشغله هيبة الدولة وقوة جهازها وكلمتها وأمرها النافذ سواء كانت على حق أم على باطل ؟

أم يشغله عامة الناس والضعفاء منهم ، الذين لا حول لهم ولا قوة والبؤساء الذين لا يستطيعون مقاومة أو اعتراضا ؟

عمر لا يعنيه شيء سوى تنفيذ العدل كما أمر به الله ، وكما رأى بعينه كيف يجسده رسول الله ، وكثير من بواعث تصرفات عمر يفسرها اقتداؤه برسول الله ﷺ جانب هام من جوانب العمرية ، ظل رسول الله يغطى مساحة واسعة منها ... قال رسول الله ﷺ فى مرض الوفاة "أيها الناس من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهرى فليستقد منى ، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضى فليستقد منى ، ومن أخذت منه مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء فهى ليست من شأنى"

نبى الله المعصوم ، الذى كان الملك يتنزل عليه ليل نهار ، يسدده ويرشده ويعلمه ويطهره ، مثال العدل والحق والخير والرحمة ، الذى كان المسلمون يفدونه بأنفسهم وأمهاتهم وآبائهم ... فى آخر عهده بالدنيا يعرض ظهره عرضه وماله ، ولن يغضب الرسول إذا أحد تقدم وأخذ حقه من الرسول ... فليس من خلقه ولا من طبعه الغضب من الحق أو مقت من يطالب بالعدل .

تصفح ما شئت من سجلات الإنسانية ، ونقب عمن شئت من عظماء الدنيا وفتش عما شئت عن مواقف وأفعال تشهد لأصحابها فى حياتهم وبعد مماتهم وتأمل ما شئت بزوغ دول ونمو أمم وانسياح شعوب فى الأرض . فلن تظفر فى سجلات الإنسانية ، ولن تعثر على عظماء فى الدنيا ، ولن تشهد مواقف وأفعالا ولن تصادف دولا وأمما وشعوبا مثلما هو حادث هنا .

إن لم يكن هناك إلا صورة واحدة تعكس كل ما اشتملت عليه الإنسانية من نبل وشرف وسمو ورقى وإيثار فلن تكون تلك الصورة إلا عمر.

ومواقف عمر الشاهدة على عدله كثيرة لا تحصى ، وهى تروعك لعظمة دلالتها وعظمة صاحبها ... فحينما يعدل عمر فهو قائم على أساس جوهرى من أسس العقيدة الإسلامية ناهض بأهم وأقوى دعامة من دعائم تلك العقيدة ... وهو ميزان لا يخطئ فى تقدير العقائد التى يدين بها بنو الإنسان منذ أن استيقظ ضمير الإنسانية ، وهفت أفئدتها إلى الأمن هذا الميزان هو الحكم المنصف ... الحكم بالعدل بين الخلائق ، وعلى قدر تأصل هذا المبدأ على قدرة تماسك تلك العقيدة وقوتها وخلودها "إن مسألة الحكم المنصف مسألة أساسية جوهرية فى العقيدة الإسلامية ، وليست بالمسألة العرضية التى يشار إليها مرة هنا ومرة هناك ، مضافة إلى غيرها من الدواعى والمناسبات"(١)

وهناك فرق أن تعدل لأن قضية أمامك تتطلب العدل والحكم ، وتعدل لتكشف عن مبدأ سارٍ فى الكون كله ، مبدأ بنى عليه الكون ، وهو متغلغل فى كل جزئية من جزئياته...إنسان وحيوان وجماد "قال رسول الله ﷺ : إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة"

فالعدل ليس مطلبًا إنسانيا يتحرق إليه الإنسان شوقا إذا اصطلى بنيران الظلم وحرقة الغبن ، ويكون فى غنى عنه إن لم تدفعه الدواعى وتلجئه الظروف إلى ذلك ، ولكنه أساس مكين بنى عليه الكون وأقرَّه خالق الكون :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾(٢)

١ - المرجع السابق – صفحة ٥٤ .
٢ - سورة الرحمن : الآية ٧ .

﴿ ...وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ... ﴾ [1]

﴿...وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ... ﴾ [2]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ... ﴾ [3]

وخالق الكون أمر بالعدل ومن قبل أسس ونظم الكون على العدل ، قانون يشمل الخلائق جميعهم ، وأوامر الله منفذة حتى لو لم يطيعها الخلائق ، وهى قائمة حتى ولو لم يؤدها الخلق ، فهم لا يملكون ردها ولا يستطيعون هدمها :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ... ﴾ [4]

إذن وجود خالق عادل فيه تقويض لكل صور الظلم ، وإبطال لجبروت وطغيان الظالمين فى كل زمان ومكان ، وما الكون إلا بمثابة قاعة محكمة تجرى فيها كل مراسم العدل والإنصاف بدون خداع أو زور أو تزييف لأن القاضى والحاكم هو الله أعدل الحاكمين "ويؤمن المؤمن بحكومة الكون على هذا المثال فيحق له أن يقول إن فى الكون حكمًا وإن للحكم سنة وإن قضاء الحق فوق قضاء الأقوياء" [5]

وقد أدرك عمر أن الأمم والحضارات تنهار فى الأرواح والنفوس قبل أن تنهار فى البنيان والصروح ... وذلك حين يفقد بنوها الأمل فى بقائها وأيضا حين يشعرون أن رصيد تلك الحضارة من القيم والمبادئ قد نضب ، وأنها لم تعد ترضى حاجتهم إلى قيم العدل والخير والحق ، ولم تعد تعزز إحساسهم بآدميتهم وإنسانيتهم ، وإن كانت ترضى حاجتهم

١ - سورة الحديد : من الآية ٢٥ .
٢ - سورة النساء : من الآية ٥٨ .
٣ - سورة النحل : من الآية ٩٠ .
٤ - سورة الأنعام : من الآية ١١٥ .
٥ - الديمقراطية فى الإسلام : صفحة ٥٤ – عباس محمود العقاد .

الدنيوية إرضاءً لا مزيد بعده ، لتحاول أن تعوض القصور والنقص فى الجوانب الأخرى وآمن عمر أن أهم أساس تقام عليه الأمم والحضارات هو العدل ، وإن وجود هذا الأساس المهم والخطير يعوض عدم وجود بعض الأسس الأخرى ففى عدم وجوده تنهار الأمم وتتقوض الحضارات ، حتى لو توافرت لها الكثير من الأسس والركائز الأخرى ، لأن كل الأسس وكل الركائز تستمد قوتها وسر بقائها من العدل .

وعمر لا يكتفى أن يتصف شخصيًّا بالعدل ، بل يجد واجبًا عليه أن يحمل الناس حوله أن يتصفوا بتلك الصفة ، ويتخلقوا بهذا الخلق الحميد ويصبح العدل قيمة أصيلة وعطاءً يوميًّا يتعاطاه الناس فيما بينهم فى حياتهم ، فلا معنى أن يكون عمر عادلاً ومن حوله لا يقدرون هذه القيمة ، فمن ضمن الأسباب التى جعلته عادلا رغبته النبيلة أن يكون الناس كذلك ... ولن ينكر الناس دعوته تلك والإلحاح عليها واللجوء فى بعض الأحيان إلى الشدة والحزم ، التى قد تغضب الكثيرين وتجعلهم يضيقون ذرعًا ويتبرمون ولا يتحملون هذا القسطاس المستقيم ... مثلما فعل مع (جبلة بن الأيهم) الأمير الغسانى الذى دفعه موقف عمر أن يعود هو ومن معه إلى دين النصرانية بعد أن كان قد أسلم ، ولم يعجبه أن يقتص منه لأنه لطم رجلا من عامة المسلمين الذى داس على إزاره أثناء طوافه بالحج ، ولم يخسر عمر شيئا ولم يخسر الإسلام شيئا ، إذ ما فائدة ملايين يدخلون الإسلام وهم رافضون مبدأ مهما ، وقيمة عظمى من قيم هذا الدين وهو العدل ؟!

وعمر ألزم نفسه وألزم ذويه بهذا المبدأ ، قبل أن يلزم الآخرين به ، فهنا تحقق مبدأ المساواة ، وغاية ما يطلبه الناس فى كل العصور هذا المبدأ ، وإذا رأى الناس تحققه ، فهم على استعداد أن يفعلوا المعجزات ،هم على استعداد أن يتحملوا ما لم يكن لهم قدرة من

قبل على تحمله ، وعزؤهم أنهم متساوون ... ألم يسر على ألسنة الناس مقولة "المساواة فى الظلم عدل" .

الظلم ... هذا الإحساس المؤلم ... ولن تجدن نفسًا لها طاقة على تحمله ، وإن تحملته حينًا فستضج به وتضيق به ذرعًا بعد حين ، وقد تثور من عبء تحمله ، وكل الثورات والحركات التى شهدتها الإنسانية لم يكن باعثها ومفجرها الفقر أو الحرمان ، أو أشياء من هذا القبيل ، ولكن الناس يثورون لأنه أصابهم ظلم وافتقدوا العدل ، يثورون مهما كان الضرر ، ومهما كانت العواقب التى تترتب على هذه الثورة ، فللنفوس طوق وقدرة على تحمل الظلم ، فإذا تعدى الأمر تلك الطاقة والقدرة وزاد ، تساوت كل البدائل أمام النفوس وكما يقولون "لم يعد فى طوق الصبر منزع" كتب عمر بن الخطاب إلى العمال "اجعلوا الناس عندكم سواء قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم ، إياكم والرشا ، والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب ، فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار" .

ولو ساعة من نهار ، فقد تصلح تلك الساعة فساد عشرات السنين ، فقد جاء فى الأثر : "عدل يوم كعبادة أربعين سنة" شىء واحد يفتح جميع الأبواب والمنافذ أمام النفوس ، فلا تجدن غيظًا ولا كظما ولا مكبوتًا ، ولن تجدن نفوسًا قلقة متململة، ولن تجدن وجوها متقلبة تبحث عن بدائل أو مخارج مما تعانيه ، ومما يثقلها ... هذا إذا تحقق مبدأ العدل .

وكل الصفات التى اتصف بها عمر رافد تأخذ من نبع واحد ثرّ ، هو العدل المركز الذى يشع منه كل خلاله ، أو البؤرة التى يتجمع فيها كل ما يتصف به من صفات ، أو قل هو المبدأ الذى يبدأ منه والمنتهى الذى ينتهى إليه أو هو النهر المتدفق يحده شاطئان من العدل والإنصاف ، يرسمان اتجاهه ، يحددان طريق سيره

"كل الصفات تتمة لجميع الصفات ... كل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخذلان الباطل" [1]

فعمر رحيم لأنه عادل .

وعمر شديد لأنه عادل .

وعمر مؤسس دولة لأنه عادل .

وعمر قوى لأنه عادل .

وعمر تقى لأنه عادل .

وعمر أحب العدل لأنه مقت الظلم .

وعمر أحب العدل لأنه يليق بالرجل الشريف

وعمر أحب العدل لأن الله أمر به وتسمى به

وعمر أحب العدل لأنه أراد أن يكونه ، بل أراد أن يكون الكون كله قبسًا من قبسات العدل والإنصاف .

"كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة ، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل ولا يروى ظمأه إلا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يصحو ولا ينام إلا ليعدل ويعرف الحق وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول دولة الباطل بين الناس وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم ، وهو وحده أقوى فى المطالبة بهما من ألف غريم" [2]

١- عبقرية عمر – صفحة ٦٣ – عباس محمود العقاد .
٢- عبقرية عمر – صفحة ٩١ – عباس محمود العقاد .

تجمعت فى عمر كل الصفات التى تشكل القاضى فى صورته المثلى من العفة والشجاعة والجرأة والحكمة والنزاهة والصراحة والتأنى والقوة والعلم والدقة والاستقامة والثقة بالنفس والاعتزاز بالكرامة والأنفة وخلوص النية وصراحة الإيمان .

فلا تدرى أتجمعت تلك الصفات لتصوغ من عمر قاضيًا أم أن عمر جمع تلك الصفات ليكون شاهدًا على نموذج القاضى ، بل على كل قاضٍ فى عصره وفى كل العصور بعده ؟

وكأن عمر قد خلق لا لشىء إلا ليكون قاضيًا ، وليس من قبيل المصادفة أن يكون أول قاضٍ فى الإسلام .

وليس من قبيل المصادفة أن يكون أول مؤسس لديوان القضاء ، ومنظر للمعايير التى يجب أن يلتزم ويسير عليها القاضى .

وحينما نتأمل الرسالة التى بعث بها إلى أبى موسى الأشعرى ، نتعجب أنى جمع عمر هذا العلم الشامل والخبرة العميقة ؟

ومن أين أتى بهذا القول الفصل فى أصول التقاضى ؟

لا شك أنه شىء فطرى فى شخصية عمر ، أضف إلى ذلك ما تعلمه من نبيه الكريم وما خبره من القرآن والسنة .

هناك روافد شتى تجمعت لتجعل من هذه الشخصية الفريدة المجيدة هذا الشىء العظيم الباقى على الزمن ... إنه العمرية .

كتب عمر : "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك ... أما بعد :

فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة

فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالا

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة .

ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق .

واجعل لمن ادعى حقا غائبا أمدًا ينتهى إليه فإن أحضر بينة والا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا فى حد أو مجربًا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والإيمان

وإياك والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس وما تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام"

قد لا تدهشنا تلك الرسالة بعد مضى ألف وأربعمائة سنة على كتابتها وقد لا يثير اعجابنا كاتبها . لأن الآن وصلت الإنسانية إلى مراحل راقية من نضجها وأسهم المفكرون

والفلاسفة والمصلحون فى وضع الدساتير وتقنين القوانين ، وهناك رصيد ضخم وهائل من القوانين التى تراكمت على مر القرون ، وهناك منظمات فى طول البلاد وعرضها تلهج بدون توقف بحقوق الإنسان ، وهذا شىء محمود

ولكن حينما نعرف حالة العالم والمناخ السائد الذى كُتبتْ فيه الرسالة ، وما كان يحكم العالم ويسوده من ظلم وطغيان وجبروت واستبداد وتحكم من الأقوياء وأن البشر فى ذلك الوقت لم يكونوا إلا نوعين لا ثالث لهما ، إما ظالم أو مظلوم أو آكل أو مأكول ، نوعًا يعيش متمتعًا بكل ما فى الحياة من ترف ونعيم ، وآخر يعيش مسخرًا مستعبدًا مملوكا .

وحينما نعرف أن تلك أول رسالة من حاكم أو أمير إلى عامل من عماله أو قاضٍ من قضاته ، ليست من مفكر أو مصلح ، أو لم يتقدم بها فرد ينوب عن الرعية ، أو لم تقم لجنة منبثقة عن لجنة بصياغة هذا الدستور ... نعجب أيَّما إعجاب بالرسالة وبكاتبها .

ولكن ما فائدة تلك الرسالة ؟ وما فائدة العمل بها ؟

إنها تقعد العدل ، تجعله قاعدة ، تلك القاعدة لها مواصفات وأحكام وهى فى غاية الأهمية ، لأنها تحدد مصير وشكل ما يبنى عليها .

وأى تفريط أو خلل فى تلك الأسس سيعرض البناء كله للتقويض والانهيار قبل أن ينفض العمال أيديهم من وضع آخر لبنة فى البناء .. معايير وأسس وقواعد لابد أن تراعى وبدقة متناهية .

كذلك بناء الأمم والحضارات ، فلا يغرنك ضخامة البناء وطلاؤه ، ولا يغرنك كل ما يظهر فوق الأرض من مظاهر الترف والبذخ وعلو البناء وشموخه ، ولكن انظر إلى ما خفى تحت الأرض ، ما استبطنته عناصر ومظاهر تلك الحضارة ، ما يسرى فى عروقها ، ما ينظم ويحدد نوعية العلاقات بين الناس ، ما تخفيه ضمائرهم وتعكسه أفعالهم وتصرفاتهم

ويجول بخواطرهم وأقصد به روح الأمة ، وضمير الحضارة ، هل هناك روح أم لا ، وهل هى متمثلة وملموسة ولها أثر فى كل ما حولك أم لا ؟

والروح نابعة من المعتقد ، وعلى قدر قوة وصدق ووضوح هذا المعتقد وتقديمه للمؤمنين به رؤية ونظرة شاملة ومتسقة مع الكون على قدر قوة الروح ، على قدر قوة البناء أو الأمة أو الحضارة .

"وتقوم قوة المعتقد التى لا تقاوم على أنها العامل الوحيد الذى يستطيع أن ينعم على الأمة بوحدة مطلقة من المنافع والمشاعر والأفكار حينا من الزمن ، وهكذا تقوم الروح الدينية دفعة واحدة مقام تلك المتراكمات البطيئة الموروثة الضرورية لتكون روح الأمة، أجل إن الأمة التى يهيمن عليها المعتقد لا تغير مزاجها النفسى غير أن جميع ملكاتها تتوجه بذلك إلى غرض واحد تتوجه إلى نصر معتقدها ، فتصبح قوتها هائلة لهذا السبب ، وفى أدوار الإيمان التى تتحول ذات حين تقوم الأمة بتلك الجهود العجيبة تقوم بشيد الدول التى تدهش التاريخ ومن ذلك أن بعض القبائل العربية التى اتحدت بفعل فكرة محمد ﷺ بهرت فى قليل سنوات أمما كانت لا تعرف منها حتى الأسماء فأقامت إمبراطورية واسعة" (١)

على هذا القدر من الأهمية يكون العدل ؛ فهو سنة طبيعية فى الكون ، بها ينتظم ويستقر ، وهو خلجة حية فى الضمائر به تنعم وتطمئن ، وهو روح تنفخ فى جسد الأمة وكيانها فتستوى كائنا حيًّا متماسكا متآزرًا فيما بينه وبين نفسه ومتوافقًا ومتناغمًا فيما بينه وبين الكون ، ينشر الأمن والسلام فى ربوع الأرض

١ - الأسس النفسية لتطور الأمم – غوستاف لوبون – ترجمة عادل زعيتر – صفحة ١٦ .

والتاريخ يحدثنا - ونحن شهود - أن كثيرًا من الأمم ، قد قامت وسيطرتْ وهيمنتْ وكثيرًا من الحضارات قد أنشئت وبزت وتفوقت ، ولكن لم يكتب لها البقاء إلا حينًا من الزمان . إما لأنها كانت بلا روح ، أو كانت لها روح ولكنها لم تطق البقاء لمناقضة ومعارضة الواقع لها ، فهربت وتقلص أثرها ، وتقوضت الأمة وانهارت الحضارة ... وقد تبقى الحضارة حينًا بلا روح ، ولكنها حضارة مفلسة عاجزة ، لا ترضى إنسانية وآدمية الإنسان وإن كانت ترضى شهواته وغرائزه وغروره وطمعه وجشعه .

وحينما تقتبس أمة ما من أمة أخرى حضارتها ، لابد قبل كل شيء أن تقتبس روح تلك الحضارة لا مظاهرها وعناصرها المادية ، ونقصد بالروح هنا القيم والمبادئ والمعايير الخلقية وعمادها العدل :

"وما حياة الأمة ونظمها ومعتقداتها وفنونها إلا لحمة ظاهرة لروحها الخفية وما على الأمة التى تود تحويل نظمها ومعتقداتها إلا أن تحول روحها فى بدء الأمر وما على الأمة التى ترغب فى دخول حضارة إلا أن تدخل إلى هذه الحضارة روحها أيضا" [1]

وعمر كان فى طريقه لبناء أمة ، وتأسيس حضارة ، وتقوية عقيدة ، ونشر دعوة فى أرجاء العالم ، وأدرك أن الإسلام سيعرض على شعوب العالم وأن تلك الشعوب ستهوى إليه متى وجدت فيه الحلم الذى ما فتئت تحلم به ، وتناجى به ضمائرها الشيء المفقود الضائع دومًا من حياتها ، وهو العدل .

ويعتبر عمر أكبر وأقوى مؤسس للدولة الإسلامية ، وأنه ساهم فى الفتوحات الإسلامية ، بأكثر وبأعمق وبأشمل مما فعلته جيوشه يقودها صناديد وأبطال الإسلام فى الشرق والغرب ، وذلك حين حكم فى قضية واحدة عرضت عليه ، وكان العالم كله بل

١ - الأسس الفنية لتطور الأمم – غوستاف لوبون – صفحة ٢٥ .

الإنسانية جمعاء شاهدة على عدالة القاضى حين حكم بين المصرى وهو من عامة الناس وإلى مصر (عمرو بن العاص) ، لم تكن مجرد قضية عابرة حسمت بحكم قاطع من قاض حازم وحاسم وانتصف فيها للمظلوم ، واقتص فيها من الظالم فالآلاف من القضايا تعرض على القضاة كل يوم ، وقد يكون الحاكم عادلا ويصدر حكمه الذى يرضى المتخاصمين وتطوى القضية فى سجلات المحاكم ولكن الأمر هنا كان جلاء لمبدأ وتأصيلاً لقاعدة وتقوية لأساس من أهم أسس تلك العقيدة ، وإعلاماً لشعوب الأرض كلها ، إن تلك العقيدة وهذا الدين لا يبغى إخضاع الرقاب بالسيوف ، أو تقييد الأجسام بالقهر ، ولكن تلك العقيدة تفتح أبوابًا للأرواح لتهدأ بعد طول قلق وتمهد سبلا وطرقا للضمائر ، لتطمئن بعد نصب ، وتخلق عالما فاضلا للنفوس لتستقر بعد حيرة وعناء .

"على إننا نستعظم الأحداث العظام فى تاريخ بنى الإنسان بمقدار ما فيها من فتوح الروح ، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان" [1]

والشعوب تقيم وتزن ما يعرض عليها بميزان حساس هو القسطاس ، وهى لا تخضع لطاغية ، ولا تفتح عقولها وقلوبها لحائز على نصر فى ميدان معركة تكون الغلبة والنصر فيها لقوة جسمانية أو لقوة أداة أو لذكاء ومكر وخديعة ولا تعتنق عقيدة تعدها بالسعادة فى هذه الحياة الدنيا أو بالجنة المتخيلة تصبح واقعا على الأرض ، ولكن الشعوب تفتح قلبها وعقلها وتحنى جباهها لتلك العقيدة التى ترتفع بها فوق الأرض وفوق الجسد لترتقى وتسمو وتزداد قربًا من الخالق .

"ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان، لأنه فتح فى كل قلب من قلوب أتباعه عالما مغلقا تحيط به الظلمات ، فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها فإن الأرض لا تزيد

١ - عبقرية محمد – صفحة ١٧٥ – عباس محمود العقاد .

بغلبة سيد على سيد أو بامتداد التخوم وراء التخوم، ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها فى هذه الحياة فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ودنابه مرتبة إلى الله"[1]

على هذا نقول إن عمر يُعد من أكبر الفاتحين فى الإسلام ، لا لأن جيوشه هزمت أكبر إمبراطوريتين فى ذلك الوقت ، وزادت فى رقعة الدولة الإسلامية ولكنه فتح بين الإسلام وشعوب تلك الأمم والإمبراطوريات أبوابًا وعوالم من الرجاء والأمل وأحبا فى نفوسهم من الرغبة النبيلة والأمنية الشريفة أن يعيشوا فى هذه الأرض موفورى الكرامة والعزة، يأخذون ما لهم بكل سماحة ورضا ، ويعطون ما عليهم بدون تعسف وجور وكذلك ، يعد عمر من أكبر المؤسسين لدولة الإسلام لا لأنه ابتكر مرافق ودون دواوين ونظم وقعد ورتب ... ولكنه أظهر وجلى قيمة من أعظم القيم فى الإسلام وهو العدل ، والإنسان لا يطالب بالعدل لأنه قيمة فى حد ذاته وكفى ويلهج به كل آن وكل حين لأنه شىء عظيم الأثر وجليل الخطر فى حياته ، ولكنه يؤمن أن الكون كله مؤسس على العدل وقائم على الإنصاف ، لذلك بقى الكون كل تلك الآماد وسيبقى بدون اختلال أو فوضى تطرأ عليه ... كذلك حياة الإنسان، لن تستمر وتنتظم وتستقر إلا إذا ساد المبدأ الذى قام عليه الكون ، وقامت حياته على ما قام عليه الكون ، ولن يكتب الاستقرار للإنسان والهدوء والأمن إلا إذا ساد الإحساس بالعدل فى الضمائر قبل أن يكون شاهدًا من شواهد الواقع المعاش

١ - عبقرية محمد – صفحة ١٧٦ – عباس محمود العقاد .